جامعة الروح القدس الكسليك
كلّية الفلسفة والعلوم الإنسانيّة

المؤتمر الدولي : **ثلاث ديانات، إنسان واحد**
الكسليك ، ١٦–١٨ تشرين الأوّل ٢٠٠٨
PUSEK, **2009**, **Vol**. **24**, **T**. **2**, **p 111–126**

Mots Clés : Dieu, homme, religion, symbolisme, humanisme, co-transcendance, dialectique transversale

في الإنسان، الله وأنا

يوحنا عقيقي

١. من المعضلات الأساسيّة لمفهوم الكائن البشري عقلُه. فهل يميّز العقل، فعلاً، الإنسان عن باقي المخلوقات، الحيوانيّة منها بالتحديد ؟ وهل يرفع العقل الإنسان إلى مصاف الآلهة لأنّه أجاد التصوير، وأقتنع بلعبة المرايا، فأقنع الآلهة أنه هو الصورة الوحيدة التي تكشف جمالها، وخيرها، وقوّتها، فحضورها ؟ وهل يكتفي العقلُ المؤّله بما له، أم تراه يستمرّ، وواقع العلم اليوم، بمصادرة وظائف وطاقات النفس البشريّة، كما هي الحال في علم النفس الدماغي neuro-psychologie ؟ وإذا ما غصّ التعبير، ومَسحت الصورةَ غشاوةٌ كونيّة قاهرة، أعادت صاحب العقل إلى واقع أليم يراه يوميًّا في محيطه، فيختبر من خلاله عدميّة قبل الأوان، لملم الآدميّ أطرافه على رقعة **بساطه،** أو عاد فاستسلم لقدرات خياله وتصوّر نفسه طائرًا على **بساط الريح**، مستهزئا بجاذبيّة المادّة وبانحلالها، مترفّعًا عن ذات العالم رافعًا أثقاله إلى ما فوق.

٢. ومن قدرات العقل الأولى مشاركتُه الفعّالة في صياغة وإخراج الصورة اللغويّة الصوتيّة، قبل الإتفاق على تحديد المفاهيم ورسمها فكتابتها. ومن خلال هذه القدرات والإمكانيّات، استلهم إنسانُنا الرّمز بقراءته العميقة لقوانين الطبيعة الغنيّة بمواردها، فتواصل معها إلى ما بعدها، محاولاً الرّبط بين ما تراه عين الطبيعة وما تستشفّه بصيرةٌ أنوارُها من داخل كما من فوق. وكانت أنجحَ الاتفاقيّات وأخصبَها ثمارًا روحيّة وفكريّة تلك التي جمعت رؤيا العينين في صورة واحدة، وكلّلت مجهود الفكر المكدون بالحواس الحيّة الناطقة بلغة القلب. وكانت الحكاية الأسطورة ترجمة حضاريّة رائدة لهذه الحياكة البشريّة التي اعتمدت "قطبة" الرّمز في وصل ما بين الآن وما بعد، مفصّلة أقسام الثوب، كلّ ثوب، سوف يرتديه الفكر الموضوعي فيما بعد.

٣. على هذا الأساس قد تسلم مقولة كاسّيرر في تمايز الإنسان عن باقي المخلوقات، إذ يحدّده حيوانًا رامزًا *Animal Symbolicum* وليس حيوانًا عاقلاً[1] فحسب. وفي رأيه أنّ الإنسان أضاف، إلى ما يشارك به الحيوان في نظامي التقبّل والاستجابة، (الفاعل والمنفعل *between the receptor system and the effector system*) شبكة نظاميّة ثالثة *third Link* من عصارة لبّه، وبها ينفرد ويتميّز، ألا وهي النظام الرمزيّ *Symbolic System*. هذه

[1] . “Hence, Instead of defining man as an *animal rationale* we should define him as an *animal symbolicum*. By doing so we can designate his specific difference, and we can understand the new way open to man – The way to civilization.” Ernst Cassirer, *An Essay on Man, An Introduction to a Philosophy of Human Culture*, Text und Anmerkungen bearbeitet von Maureen Lukay, Felix Meiner Verlag, Hamburg, 1995, s. 31

الشبكة الجديدة، يضيف كاسّيرر، موضحًا، غيّرت في وجود الإنسان كلّيًا، إذ، وخلافًا عمّا كان عليه مع باقي الحيوانات، لم تعد حياة الإنسان مجرّد استلقاء في رحاب الحقيقة (حقيقة الوجود)، بل هي انفتاح على بُعدٍ جديد *new dimension of reality* لهذه الحقيقة، قد تكون أولى القفزات التجاوزيّة من مردوده[٢].

٤. بهذا التحديد الأوّلي تتوضّح بوادرُ الإشكاليّة الأساسيّة لمفهوم الكائن البشري. وقد خطا نيتشه خطوة كبيرة في قوله إنّ انحطاط الفكر بدأ مع سقراط ومدرسته. هذه المدرسة التي طوّرت ما للعقل وأهملت، حتى القتل، ما للفكر الحسيّ المرتكز على إمكانيّة التصوّر والإبداع الإنسانيين، وباعدت بين الإنسان وإطاره الطبيعي الحيّ، فتشوّهت العلاقة الوجوديّة التي تربط الإنسان بالطبيعة، مبشّرة بالعدميّة الأوروبيّة المَرَضيّة. من هنا كان اهتمام نيتشه بالإنسان المبدع، بالمجنون، بالقدّيس المتوحّد، عاشق السكينة في حاضرة الطبيعة الملهمة، وليس بالعالِم، ولا بابن العامّة المنبطح أمام صنميّة الفكر المستوردة من خارج. ففي تحديد المفاهيم تِكنين وتَشييئ فتمييد[٣] للفكر لأنّ هذا النوع من التحديد العقلي[٤]، الذي يبغي العام دون الخاص، يغفُل عما يكتنهه المفهوم، كلّ مفهوم، من إحساس عميق بأنّ ما يُقال أو يُفكَّرُ به هو كذلك، بمقدار ما تختمرُ المقولات والأفكار على اضطراب الشعور وكيميائيّة البصيرة. وكم من مساوئ وويلات سبّبتها تعابيرنا الغامضة المحشوّة التباسًا أو ارتباكًا فجهلاً. وكم من معارف زادتنا خوفًا فهروبًا إلى الأمام من دون الاطمئنان إلى فكرة، إلى شكل أو موقف. فالتأكيد على الشيء لا تعطيه البيّنات الكلاميّة العلميّة المرقّمة، ولا حتى البراهين المنطقيّة الدامغة كما نقول، بل هي القناعة الداخليّة، هذا الإحساس الرهيف بما يقال أو يحدّد، القادر على إنهاء مهمّة الشكوك، المحرّر من سلطة التردّد، والمتوكّل على ذاته، الذي "يتصرّف في أمره بسلطة كإبن الله" كما يقول أبونا إسحق[٥]. وهذا ليس من فعل العقل فقط، وهو الذي يقطف ثمارًا بكرًا، ولا من باب الإيمان فقط، وهو المجيب على سؤال فارتعاش داخليّ تحت قبضة الرجاء، بل من تراكمات وجدانيّة شموليّة انصهرت على نارين : الوجود الفعلي والتواصل في ما بين المخلوقات، بخاصة التواصل اللغويّ المحكيّ أوّلاً والمرمّز فيما بعد[٦] ؛ هو وجود حيّ يسوغ ل"لأنا"، من عرس السماء والأرض، صدقَ المقال، وأطيب اللحظات التي لا تُسمّر في آن (الممحيّة من الآن). وبين الوجود واللغة، والرّمز، كتجسيد فعلي متقدّم للفكر، أكثرُ من محطة التقاء، فتعاون مصيريّ منذ ما قبل بارمنيدس، ومقولته الشهيرة : "الكائن وفكرة الكائن شيء واحد"[٧]، حتى اليوم.

---

[2] Cassirer, op. cit., p. 29-31

[3] Consécutivement : techniciser, chosifier et matérialiser

[٤]. يجدر التذكير بالنّقد الرواقي لمنطق أرسطو وقياساته. فقد اعتمد الرواقيّون، بدل التحاليل القياسيّة المجرّدة، منطقًا عملانيًّا يرتكز أساسًا على معطى حسيّ واقعي دون إهمال دور الفكر بالطبع، فإذا بدأت البقرة بإعطاء الحليب فلأنها أنجبت عجلاً وليس لأنها من جنس الثدييات.

[٥] مميّزًا قدرات العقل والإيمان يضيف ناسكنا : "المعرفة يتبعها خوف أما الإيمان فرجاء"، إسحق السرياني، **نسكيّات**، مجموعة آباء الكنيسة، ٧، منشورات النور ١٩٩٠، المقالة ٦٢، ص. ٢٢٦.

كثيرون كتبوا وعلّقوا على أسبقيّة الشعور بالنسبة للعلم الذي يزيدنا اضطرابًا. نكتفي بأحد أهم روّاد عصر الأنوار يدافع عن هذه المقولة، جان جاك روسّو :

"Exister pour nous, c'est sentir; notre sensibilité est incontestablement antérieure à notre intelligence et nous avons eu des sentiments avant des idées". J.J. ROUSSEAU, *Émile ou de l'Education*, Œuvres Complètes : IV, Gallimard, 1990, Bibliothèque de La Pléiade, IV, p. 600

[٦] من واقع الحال الإنتباه إلى دور اللاوعي الجماعي في تخمير هذه العمليّة وكلّنا يعلم ما لهذا اللاوعي من مكانة في تركيبة الرموز.

[٧] ***τὸ γὰρ αὐτὸ νοεῖν ἐστίν τε καὶ εἶναι.* ... قصيدة بارمينيدس، ٣**

٥. ضمن هذا الإطار تندرج الدراسة في الإنسان، صاحب المشاكل والحلول، مستفيدة من تجربات المختبرين وطروحات السابقين في علم اللغة والإنسانيّات، بخاصة اللاهوت والفلسفة.

بداية، إذا كان لا بدّ من الإلتزام بتحديد أوّليّ فهو اتفاق على تسمية؛ وفي التسمية صياغة معنويّة سلطويّة تؤطّر الصورة الذهنيّة في قالب يشاؤه الوعيُ مساحة فكريّة سليمة، ينطلق منها محاورًا الآخر الذي قد يشاركه هذا الوعي، ويبدي استعداده لتقبّل أو لرفض أيّ طرح آخر. فمن هو الإنسان موضوع بحثنا ولقائنا ؟ الطرح يقول إنه الله و أنا. وأنا لا أخترع، ولا أهرطق ولا أهذي، "وما أنا في دَد وما الدَد منّي"، بل أقرأ وأحاول أن أفهم ما أقرأ. عجيب هذا الساميّ الذي سمّى ذاته (شخصه) إنسانًا وأنسن الله، تاركًا لخَلَفه تراثًا إثنيًّا، وفكريًّا وحضاريًّا مُقلقًا باستمرار.

٦. في معنى التسمية العربيّة[٨]، نكتفي بالآتي : الإنسان : هو أكثر شيء جدلاً (سورة الكهف، ٥٤) ؛ سمّي كذلك لأنّه عُهد إليه فنسيَ (سورة طه، ١١٥)، ويكون المصدر إنسيان من النسيان وقد حذفت الياء تخفيفًا ؛ الإناس والأُنس، يونُس ويونَس ويونِس لغة في الناس ؛ الأنس خلاف الوحشة ؛ آنس وأنّس الشيء أبصره وسمعه وأحسّ به ؛ أصل الإنس والأنس والإنسان من الإيناس وهو الإبصار (الأزهري)، اليقين بعد اطلاع.

٧. في الخلاصة، الإنسان هو صاحب البصيرة، المدقّق في ما يرى ويسمع ويحسّ به. في هذه الأبعاد كلّها تركيز على قدرات ذهنيّة واعية ولكن محدودة، تشير إليها الذاكرة غيرُ المحصّنةِ ضدَّ النّسيان، والقبول بحقيقة مؤلمة واحدة لا يعتريها شكّ، وهي الموت المحتّم، كما نقول، أو "الموت الموجب للإنسان" كما فسّرها العربيّ[٩]. ومن الواضح أيضًا، في صلب هذه الصورة التي لا يغيب المنطق الأرسطي عن عمليّة تركيبها، أنّ الانفتاح الملموسَ على الخارج هو المفتاح الذهبيّ الذي توفّره الحواس، فالإنسان يُفهَمُ بصيرًا[١٠] وسامعًا وصاحبَ إدراك ؛ وهو بالتالي الأكثر جدلاً بين المخلوقات لأنّه يتمتّع بهذه القدرات الحسيّة مجتمعة على إيقاظ فكر نقديّ يسمحُ له بطرح الأسئلة ويعطيه الحقَّ بالجواب عليها. وتكون لغّته، من اشتقاق إسمه، هي الدليل الساطع على سموّه فتمايزه : لغويّ، متكلّمٌ، مفكّر، مبدعٌ، وعلائقي.

٨. إبن أرض محدّق إلى السماء، هذه هي صورة الشخص الساميّ الذي توفّره المعطيات اللغويّة والأدبيّة. صورة شخص يختزل في حركته الرؤيويّة سرّ الوجود الآسر بين نقيضين : جاذبيّة تشدّ بلهفة إلى مادّة الأرض حيث جُبل، وانخطاف روحيّ يعلّق الفكر والآمال في مادّة السماء حيث يحلّ له وحدَه أن يبسط جناحين لا يشيخان. سرّ، كان ولا يزال الإنسان صانعَه. فمن يحمل أو يخبئ أسرارًا غيرُ هذا الجدليّ بالفطرة. من الذي يرى فوق

---

[٨] كما جمع مصادرَها ومدلولاتِها التاريخيّةَ واللغويّة **لسانُ العرب المحيط** وبعده باقي المعاجم كالمنجد وغيره

[٩] **لسان العرب، المحيط : "الحق هو الموت الموجب للإنسان"**

حتى الكبار في الإيمان خضعوا لهذه الحقيقة المؤلمة وكانت محاولاتهم أشبه باستسلام لمشيئة قدر أرادوها إلهيّة المصدر والمصير، فكانت صرخاتهم أصدق تعبير عن إيمانهم بالقادر على التغيير أكثر من طروحاتهم الفلسفيّة واللاهوتيّة. على سبيل المثال غريغوار النزينزي الذي قد يقترب من الكفر في التعبير عن هذا الألم الوجودي إذ يقول في *De externi hominis vilitate*, XII ما ترجمته : "إلى متى سوف أبقى غارقًا في هذا الوعاء القذر ؟ ... أعطني، يا ألله، تلك الحياة، ذاك العالم، غاية أمنياتي ؟" و يردّد مضيفاً مع أيوّب البار (ايوب ٣،١١ و ١٠، ١٨-١٩) : "لماذا لم أمت في حشى أمّي ؟ فما الحياة سوى خروج من لحد لدخول آخر. ..." .

[١٠] لمعنى كلمة *ανθρώποσ* أنثروبوس اليونانيّة قربى شديدة مع المفهوم السامي ولو مجتزأ. فالإغريقي هو البصير على قدمين والذي يطل على المرئيّ منه من فوق. يرى من فوق دون انحناءة رأس ليؤكّد على تفوّقه وتساميه بالنسبة لباقي المخلوقات.

المحسوس أو يسمع همس الأمر في قلب المريد، قلب الحياة، سوى هذا الرّامزِ الرّميز (الأصل، العاقل، المعظّم، المبجّل) المتألّه السابحِ فوق المحدود. قدرات جمعت بين نور وعتمة، وحوّلت ليل التجربة و**الألم** ضياء **أمل** في **ملء** سطوة النهار، فتحرّر الساميّ من غلال النعاس وهذِّ الحواس كلّ الحواس للإعتراف به ساهرًا على أساس المفهوم الصحيح للإناس عند الناس. هو الساهر، اليقظُ[11] **ܥܺܝܪܳܐ**، **ܥܺܝܪܳܐ** الحقيقيّ وليس آخر. وإن نوّه في أحاديثه على شيء أو أدمع، فابتسم دالاً على شيء، فلأنّه الساهر الوحيد الذي تربطه بالحبيب أواصر إلفة فصداقة، فمشاركة في الحضور، في السكينة.

٩. تضرّع السّاميّ ووصل في صلاته إلى الأحد الموصّل وغير الموصول بشيء. فالكثرة المترامية على الوجود، وحدة في عمق الفكر ولو بقيت أكثريّة في شتات المكان والزمان. ميّز الإنسان ذاته عنها لأنّه رآها بعين ليست كعينها. استغربها وتغرّب عنها قاصدًا صحراء الميعاد حيث تتحوّل اللعنةُ بركةً وتفيض الخوابي زيتًا للمسحة، وحيث تطيبُ اللقيا بالوحيد، ويغرق الإنسان في محيط النعمة، ويعترف بالأحاديّة الإلهيّة. هناك، في فراغ الحصن الإلهي، وجد الإنسان نفسه، وكم تمنّى لو كان وحيدًا، لو بقيت الأنا أنا. قدَره الجماعة، ومصيبته أنّها غالبًا ما كانت هذه الأخيرة مجموعة أفراد لم تنضج فرادتهم في المعيّة التجاوزيّة *co-transcendence* . وسرّ النضوج استراحة على وُصلة الرّمز بين العينين.

١٠. على ضوء هذه الوُصيلة استنبط الساميّ ما يتحدّى به الوقت، وضعف الذاكرة، فإمكانيّة البقاء، رغم الانحلال والتغيير : كتب، كتب "باسم الله"، وقال أنا مستمرّ. كتب، وكتّب إلهه حروفًا ساميّةً ليؤكّد على ألوهيّة لغّته وبالتالي، على ألوهيّة الجوهر الذي نحت منه. فهو الكاتب الوحيد وليس آخر. وقد أدرك هذا المبدع سرّ المعيّة التجاوزيّة، فما أضنى بالَه أنّ بقاءه مرسومٌ في عين الآخر، وفي فكره، كما في كلّ حركة أو إشارة يقوم بها. وكان الوصل خبرَ الإنسان، والله منزّه عن مبتدأ وخبر. فكيف الوصول إلى النبع المحيط من دون الغرق في كلوهيّة *Panthéisme* خانقة ؟ أو كيف نفقه المبتدأ ولا نعرف الخبر ؟ نكتب، ونترك الآخر يفسّر ويفهم ويطوف بالمكتوب عبر الزمن، يحمّله شواهد التاريخ ويشقّ به حائط النسيان قدمًا حتى الخلود، ما دام الوجود وبقي إنسان يرى، يقرأ ويفكّر، ويكتب ؛ ما دام هناك من يقول أنا ابن فلان، والكلّ يعرف جدودي، فاسمهم محفور على صفحات باقية، مطويّة على صدر الحضارات والتقاليد، أو ربّما متدثّرة بلحاف اللاوعي الجماعي.

١١. في طرحنا "الله و أنا" جواب مقتضب لمفهوم الإنسان، وتشديد معنيّ مركّز على العطف والمعيّة أكثر منه على الفاعلين الطرفين، – متجاوزِين التيارَين الغربيّين المتصادمين[12] : الأنسنة الإلهيّة المحور والأنسنة الذاتيّة المحور، معوّلين على ثبات فاستمراريّة الخط الساميّ الجامع والموفّق بين ما هو لله وما هو للإنسان، وهو الخطّ الحضاري

---

[11]. اليقظ، **ܥܺܝܪܳܐ**، كما رآه الآراميّ، التقيّ، هو الملاك الساهر أبدًا على تسبيح الله الخالق.

[12] تبقى أبحاث جاك ماريتان مرجعًا مهمًّا في هذا الموضوع :

« Nous sommes amenés à distinguer deux sortes d'humanisme : un humanisme théocentrique ou véritablement chrétien et un humanisme anthropocentrique, dont l'esprit de la Renaissance et celui de la réforme sont premièrement responsables…

La première sorte d'humanisme reconnaît que Dieu est le centre de l'homme, il implique la conception chrétienne de l'homme pécheur et racheté, et la conception chrétienne de la grâce …La seconde sorte d'humanisme croit que l'homme lui-même est le centre de l'homme et donc de toutes choses ».

Jacques Maritain, *Humanisme intégral*, Paris, Aubier, 2000, p. 36.

الذي أعطى صورة واحدة لإنسان إله، المسيح يسوع[١٣]. وكلّ تفسير لأنسنة مسيحانيّة المحور، لا تأخذ في الإعتبار البعد الساميّ لهذا النضوج الإنسانيّ، تبقى من دون مستوى المعنى الحقيقي لهذه الأنسنة. فالمسيحيّة ساميّة المنشأ والبلوغ، وما التطعّم على الرّمزيّة الأم إلا التحام فتواصل مع الأصل الذي يحمل الأغصان المطعّمة وليس العكس، كما يقول بولس[١٤].- ففي أولى ساعات حياته، لا يرى الطفل ذاته أو أناه، بل يرى الآخر، أيّ آخر محصورًا في وجه أم، وعلى صدر أم، مغمورًا بحنانها، ولو سمع، بين الحين والحين، دردشة أب في الجوار، فقد يكون ذلك ارتباكًا في الإحساس تُزيله الأيّام، رويدًا رويدًا، بمقدار ما تتوضّح لديه قدرة التمييز بين الأشكال والأصوات والأشياء بشكل عام. في هذا السياق تتخزّن في ذاكرة اللاوعي، التي قد لا تعرف حدودًا تحجّمها، صور وبيّنات وجوديّة مختلفة سوف تقوم بدورها، تدريجيًّا، في تعريف الإنسان على ذاته، كائنًا علائقيًا، من خلال الآخر أو من خلال المحيط الطبيعي حيث يرتكز جسديًّا ومعنويًّا. ليس إنسان من دون الطبيعة، وتراب الأرض بنوع خاص. وما صورة الآخر المختلف في تساميه وتجاوزيّته سوى ترفّع عن الذات الطبيعيّة، **بدعوة طبيعيّة**، تنحى باتجاه الغير، نقيضًا كان أو مكمّلاً. فصورة الله في الآخر، وفي الجماعة الكبيرة أو الصغيرة، في أبوّتها وفي أمومتها، هي صورة عميقة الجذور، لا يسع العقلُ تجاوزها ولا الإحساس. ولا عجب في أنّ الديانات، بمجملها، طرحت إلى جانب الأبوّة صورة الأمومة الإلهيّة، حتى في المجتمعات البطريركيّة، كونهاُ الصورة الأجلّ للآخر الذي نحبّ، هذا الآخر الذي يختزلُ بتعابير وجهه كلّ الكون وما فيه.

١٢. لماذا تعمّد الساميّ ترتيب الواو في المركز السادس بعدما أحسن أسبقيّة الباء على الألف في صياغة أولى قصص الخلق في العهد القديم[١٥]. فإذا كان المقصود ترك الألف خارج هذا الإطار الكوني وكلمة الله تبدأ بها، فاسم آدم أيضًا يبدأ بالألف بالرغم من أنّه ترك لليوم السادس كي يبصر النور. لا أدعو هذا التفسير تنجيمًا، ولا شرحاً كباليًّا، بل هو تفسير لغويّ يستحقّ التوقفَ عنده. من تفسيرات اليوم السادس للخلق أنّ كلّ شيء سبق الإنسان ليُعِدّ له مكانًا ينمو فيه وحيث يكون هو المسيطر. وقد بدأ عمله فعلاً بالتسميات. قد تكون مكانة الواو بهذه الأهمّية من حيث إنّها هي التي تعطف بين الحروف، وتجمع، وتستأنف، وتقسم، وتنادي، وتكون بمثابة الضمير في جمع الذكور. فرمزيّة بهذا الحجم لا تجد مكانًا معنويًّا آخر خارجًا عن صورة الرّبط والوصل والتوحيد

---

[١٣] لا شكّ في أنّ لمفهوم الإنسان السامي الواحد الموحّد، المتكامل في جسده كما في روحه، في إحساسه كما في فكره، أثره المباشر والفعلي على عمليّة تخمير فإنضاج هذه الصورة السامية للإنسان الروحي الجديد، الإنسان المسيحاني. لذا لا ثنائيّة مرضيّة في الساميّة. بل هو إنسان واحد في كلّ أبعاده الكيانيّة.

[١٤] **الرسالة إلى روما،** ١١/١٧–١٩

على هذا الأساس يبني يونغ شروحاته في علم النفس الدّيني ويحذّر الغرب من مغبّة الإستمرار في تجاهل المراحل المحروقة في نضوجه الروحيّ. فما عمل عليه الشرق أجيالاً طوال لا يُستوعب أو يُستغلّ ببضعة عشرات من السنين. كم بالحري عندما يكون التطعّم على جزع يختلف في الأساس ذهنيًّا ولغويًّا وحضاريًّا. فبالنسبة إليه، كأوروبي، لا يمكن الحصول على هذا الفائض في القوّة إلاّ في عودة إلى الجذور البدائيّة، أي إلى ترتيب، فتطبيع ما قبل التطعّم على المسيحيّة. وهذا مبدأ عام في علم النفس يقول بعدم حرق المراحل في النموّ الإنساني نفسًا وجسدًا. هذا ما يشير إليه أيضًا جيروم بينوا، عندما يقول إن الغرب ذو الأصول الهنديّة – أوروبيّة، تطّعم على المسيحيّة الشرقيّة المنشأ متنكّراً لأصوله الشماليّة الشامانيّة.

Jérémie Bénoit, *Le Chamanisme, origines et expansion de la culture indo-européenne*, Berg Int éd. 2007

في المقابل، قد يكون من الأسباب الجوهريّة لعدم مشاركتنا الفعّالة، ككنيسة شرقيّة، في تطوّر علم اللاهوت والإنسانيّات، مردّه أننا تنشأنا في الغرب على تفسيرات غربيّة لتراثنا، فاستغربناه، ولم نتعمّق فيه كما يجب كما أننا بالتالي، لم نتميّز في دراساتنا الغربيّة. من هنا الدعوة لدراسات ساميّة شرقيّة لتراثنا الروحيّ الإنسانيّ كما اللاهوتيّ، بخاصّة الأدبيّ واللغويّ، وإن بمؤازرة تقنيّة غربيّة حميدة، فنحن الأجدر بفهم واستيعاب مدلولات الألفاظ، والكلمات التي تطوّرت في إطارها الساميّ الإنسانيّ، التاريخيّ والجغرافيّ، من سومريّ وأكاديّ، وفينيقيّ، إلى عربيّ، عبريّ وسريانيّ آراميّ.

Cf., C.G. Jung, *Le divin dans l’homme, Lettres sur les religions choisies et présentées par Michel Cazenave*, Albin Michel, 1999, « Lettre à Oscar A.H. Schmitz », le 26 mai 1923, p. 221-222

[١٥] **בראשית ברא אלהים** ، تكوين ١،١

الأصيلة في ذاكرة اللاوعي الجماعيّة. فكلمة "أنا" لوحدها لا تكتمل معنويًّا ولا حتى إنسانيًّا إلا بمعيّة ذات أخرى؛ و"أنا" ليست وحيدة البتّة، أقلّه في عين الأنا الأخرى، الأنت و الهو[١٦]. كذلك تفعل الواو في جمعها الضديّن، إذ تنتقل من ثنائيّة، قد تكون أحيانًا تصادميّة، إلى الجمع فالشموليّة (الشمس والقمر : تعني الضياء الكامل غير المجتزأ، كما يعني الليل والنهار شموليّة الوقت أو تجاوزيّته). وأن يكون الإنسان واصلاً في ما بين الآخر المطلق والآخر النسبيّ، أنا، أنت أو هو، ذكرًا كان أم أنثى، فهذا لأنّه هو الذي يرى، ويعقل، ويميّز، ويسمّي، هو القادر على شموليّة البصيرة فالرؤيا. لم يكن شوبنهاور بعيدًا هو الآخر عن هذه الطروحات، ولا ملهموه في الشرق الأقصى، حيث وزّع آدمُ الهندوس، البوروشا، أعضاءَه المفتّتة لخلق الكون وإلهه، تاركًا لشخصه المبجّل، كما لإلهه، الأحقيّة بالرّأس العاقل، والرّائي، والسامع، والمتكلّم[١٧].

١٣. في الختام وكي لا أطيل الكلام، عودة إلى بولس ويوحنا الإنجيلي للإرتواء من عصارة التجربة الروحيّة الساميّة المتقدّمة. نقول مع الأوّل "نعم نحن من عِرقِ ***γένος*** الله"[١٨] (أعمال ١٧، ٢٨) وإذا صعب علينا التصديق قلنا مع الثاني : "نحن خاصّته *ἴδιοι αὐτὸν*" (يو١، ١١) التي لم تعرفه حتى تمجّد. وإذا فعلت فيما بعد، فلأنّه هو من عرّف الإنسان على طبيعته[١٩]، المشدودة إلى الأصل. والبداية شاهدة على تماثل الإسم بالنسب عندما قال المؤمن بالأحد إنّه **ساميٌ يتسامى سموّ** الملك في **السماء**، وقد أضرم **نار ساميّته** (**אוש** *aôsh*) في **إله** (*θεός*،

---

[١٦] لا شكّ في أنّ تأمّلات بوبر وليفيناس وجاك صالومِي وغيرهم، تنطلق من هذا المعطى البيبلي الساميّ الإطار والنضوج التاريخي، الآبائي تحديدًا.

« L’homme devient *je* au contact du *tu* », dit Buber
« Je m’accomplis au contact du *tu*, je deviens *je* en disant *tu*. Toute vie réelle est une rencontre. »
« Chaque *tu* individuel ouvre une perspective sur le *Tu* éternel. Cette fonction médiatrice du *tu* de tous les êtres permet aux relations entre les êtres de s’accomplir mais entrave aussi l’accomplissement de ces relations. Le *tu* inné se réalise en chacun et ne se parachève en aucun. Il ne se réalise parfaitement que dans la relation immédiate avec le seul *Tu* qui, par essence, ne puisse jamais devenir un *cela*. »
Martin Buber, *Je et Tu*, cité par Pamela Vermes, *Martin Buber*, Albin Michel, 1992, chapitre « Je et Tu », p. 90-115.

[١٧] **ريغ فيدا، ٩٠/١٠** ؛ من اللافت للنظر أنّ الآلهة الأقوى إندرا، أغني وفايو، لهم علاقة بالفم، بالكلمة، وبنسمة الحياة.

« 12 The Brahman was his mouth, of both his arms was the Rājanya (Kshatriya) made.
His thighs became the Vaiśya, from his feet the Śūdra was produced.
13 The Moon was gendered from his mind, and from his eye the Sun had birth ;
Indra and Agni from his mouth were born, and Vāyu from his breath.
14 Forth from his navel came mid-air the sky was fashioned from his head.
Earth from his feet, and from his car the regions. Thus they formed the worlds. » The *Rig Veda*, Book X, 90, Ralph T.H. Griffith, Translator,; in http://www.sacred-texts.com/hin/rigveda/rvi10.htm

[١٨] لكلمة بولس في اليونانيّة *Τοῦ γὰρ καὶ γένος ἐσμέν.* ، والتي تثير معضلة التمييز بين آلهة من صنع البشر وإله حقيقي، *οὖν ὑπάρχοντες τοῦ θεοῦ γένος* *οὐκ ὀφείλομεν νομίζειν...* أصداء بيثاغوريّة واضحة (شاعر الإغريق) لا تتنافى والتراث الشرقي الساميّ كما رأينا سابقًا بخاصة وأن بيثاغوراس جاهر مرارًا بمصادره الشرقيّة، الساميّة بالتحديد. فنراه يقول :

« Mais non: c’est aux humains, dont la **race** est divine, (*ἐπεὶ* ***θεῖον γένος*** *ἐστὶ βροτοῖσιν*)
A discerner l’Erreur, à voir la Vérité
…
En laissant sur le corps régner l’intelligence:
Afin que, t’élevant dans l’Ether radieux,
Au sein des Immortels, tu sois un Dieu toi-même! »
The Golden Verses of Pythagoras, And Other Pythagorean Fragments, Selected and Arranged by Florence M. Firth,1904, p. 121

[١٩] وقد أجاد علماء اللاهوت قولاً عندما حدّدوا المسيح ابن الإنسان مبدأ هرمينوطيقياً للإنسان

Vatican II, **GS** 10 : « Le Christ comme principe herméneutique de l’homme. »
فيكون اللاهوت المسيحاني La Christologie ، حسب راهنر مبدأ وغاية علم الإنسان.

Zeus ،*Dieu*) الغرب الباحث عن علّة العلل لوجوده[٢٠]. أوضح راهنر ذلك مضيفًا، ربّما عن غير قصد، أنّ الإنسانيّة هي ما يكون عليه الله عندما يصير ما ليس من طبيعته[٢١]، يتكلّم الأنسيّة إذ صيّرها لغته، يعبّر عن مشيئته بمفرداتها وبقواعدها، كما بشواذاتها أو بممنوعات الصرف فيها ؛ فإذا ركّز راهنر فقط على ناحية واحدة في شخص الإنسان هي لغتُه، فلأنّه قد لا يكون استوعب كافّة مدلولات التسمية الساميّة لغويًّا وإنسانيًّا. وفي هذا كلّه ولوج إلى القاع حيث العبور قفزة، فتحوّل، فتعلّق بالرجاء؛ حيث يطفئ الرّمز شعلة المحسوس ليغطّسها في سرّ الفناء المنوّر ؛ حيث قد تعجز الكلمة عن وصف أو تحديد أو حتى عن تسمية. هي كلمة من وحي الإنجيلي تُعلّق المعنى، وتدلُّ على الشخص المكبّل الذي يملأُ كلَّ معنى : "وما هي الحقيقة ؟" يسأل بيلاطس المحكومَ عليه بالصلب أمامه (**يوحنا** ١٨، ٣٨) . الصمت جواب من أسرار الكلمة "ابن الإنسان"، ومن خزائنها تصوّرٌ، فتجسدٌ لمعنى الآدميّ الجديد. هذا الوحيد الذي تجرّأ وقال "أنا والآب واحد" (يو ٣٠،١٠)، "من رآني فقد رأى الآب" (يو. ٩،١٤)، مجيبًا بالفعل، بالضمير (المتكلّم)، وبالصورة، صرخةَ **الأنا** السماويّة، والدهريّة التي حملها الساميّ كنزًا تراثيًّا وراثيًّا من سومر وبابل إلى مصر وحوريب وسيناء فأورشليم. إنّها كنز النّعم المقدّسة لنفضة العمق في الذات، لنار علّيقة، لصحوة الأنا أمام الله. "أنا هو الذي هو" **אֶהְיֶה אֲשֶׁר אֶהְיֶה** (AHYH ASR AHYH) (خر ٣،١٤)، أسمعَ صوتَه بالصورة للصورة. وأنا، هنا، نعمٌ مقدّسة للأنا الأولى حيث الحقيقة صيرورة، صوت، وصورة. حيث الأنا هي الشعلة التي أبقاها الساميّ له وحده، خاصّته، لأنّه المتكلّم[٢٢]، والسامع والرّائي.

---

[٢٠] استلهم الإغريق الإسم البشريّ **איש، אוש** وجذر الكائن الأوّل لصياغة كلمة الله *θεός* وكلمة البطل *Ἥρωες* كما *κόσμος* وقد بيّنت ذلك Firth في شروحاتها للمقتطفات البيثاغوريّة التي تصرّح بالجذور الفينيقيّة الساميّة لمصدر كلمة الله، علّة العلل، المتماثلة بالنار، أو، فيما بعد، بالماء حيث كان المصدر الفينيقي التالي **אוד** (*aôd*) الذي أعطى كلمة عالم في اللاتينيّة *mundus* .

" The Greek word *κόσμος* expresses a thing put in order, arranged according to a fixed and regular principle. Its primitive root is in the Phœnician **אוש** (*aôsh*) a principle Being, *the fire* (**'esh, aysh** = fire and give **'eshshah** = woman, 'iysh, eesh = man)…" ; The Latin word *mundus* renders the Greek sense very imperfectly. It signifies exactly, that which is made neat and clean by means of water. Its nearest root is *unda*, and its remotest root is found in the Phœnician **אוד** (*aôd*), an emanation, a vapor, a source. One can see, according to this etymology, that the Greeks drew the idea of order and beauty from fire, and the Latins from water. Firth, op., cit., p. 132, note b

"Gods, Heroes, and Demons signify in the Greek words *θεός*, *Ἥρωες*, *Δαίμων*, whence they are derived, the Principle-Beings attained to perfection; the ruling Principle-Beings; Terrestrial Existences. The word *θεός* is formed from the word **אוש** (*aôs*), a Principle-Being, preceded by the *hemantique* letter ת (*θ*, *th*), which is the sign of perfection. The word *Ἥρωες* is composed of the same word **אוש** (*aôc*), preceded by the word **הרר** (*herr*), expressing all that rules. The word *Δαίμων* comes from the ancient word *Δῆμ*, land, united with the word *ὤν*, existence." p. 138 note c

مرجع أساسيّ أهل للثقة يأتينا من باحث، متميّز في الدراسات اللغويّة الإغريقيّة القديمة، وهو فردريك نيتشه، الذي يخصّص، في دراسته حول "الخدمة الإلهية عند الإغريق"، فصلاً كاملاً، الخامس، يبحث فيه، ضمن إطار جامعي سنة ١٨٧٥–١٨٧٦، عن الأصول والجذور الفينيقيّة لأكثر من إله وميتوس وعبادة وتقليد في اليونان القديمة، ومنها صورة زوس، كبير الآلهة وما يرمز إليه، و أبولو، وديونيزوس، وأرتميس، وافروديت، وهرميس، ومولوخ، وكرونوس و اريس، وأثيني بشهادة باوزانياس نفسه.

Cf. F. Nietzsche, *le service divin des Grecs*, traduction d'Emmanuel Cattin, L'Herne, 1992, p. 44–52

[21] « *L'humanité est telle qu'elle peut être assumée par Dieu.* » … Dieu peut faire sienne l'humanité… » « L'homme est ce que Dieu se fait, lorsqu'il devient ce qu'il n'est pas par nature », Cf. *Grundkurs des Glaubens* VI 1-4, 178-226 / *Corso fondamentale sulla fede*, 237-297

قد تكون لتأمّلات أويتنغر مكانتها في خلفيّة هذه الفكرة؛ فحسب أويتنغر الجسدانيّة هي آخر السبل الإلهيّة.

[٢٢] لا أعتقد أنها المرّة الأولى التي تفتح فيها نافذة المقاربة بين الديانات لغويًّا وحضاريًّا وثقافيًّا. فإله سومر وبابل، إله الآلهة، الأكبر بين الآلهة هو **أنُا**، ***Anû*** ، ؛ **أَنُا في السريانيّة**، وليس مستغربًا البتة أن يستوحي الساميّ ضمير المتكلّم خاصته من السماء، إله السماء، فتتماثل صورة الأنا بمعنى الألوهة، لأنه طالما رفع عينيه إلى فوق، و اعتقد أنّ فكره وكلامه إلهيّ المصدر. فنحن نقرأ في إحدى المحاولات البابليّة لتوحيد الألوهة، والخروج من التعدّدية المفرطة، إجماع كلّ الوجوه الإلهيّة المعروفة في شخص **مردوك**، ويكون **أنو** وجهه الأميري،

١٤. والأمنية لشعبنا الذي تمزّقه المذاهب المعميّة في جهل أصلها، المنسلخة عن جذورها، البعيدة عن استيعاب وجودها، هي أن يحافظ على ثروة إنسانه الشرقيّ، الساميّ، ويعملَ باستمرار على تنمية هذا **الإنسان الذي يتخطّى (يسمو على) الإنسان**، (بسكال، حاشية ٢٤) الواصل ما بينه والله، والواصل إلى الله[٢٣] من غير تحجيمه أو "تمييعه" بالعلمنة، أو بالمكننة، أو بردّة فعل عقلانية غير ناضجة[٢٤]. بالعكس، فليحيا إنساننُا حرًّا، مؤمنًا، متكلّمًا، عاقلاً، متواصلاً عضويًّا وفكريًّا مع الآخر ومع المحيط الطبيعي[٢٥]، شرقًا وغربًا، شمالاً أو جنوبًا، فيحقّق الغاية ويصير ما هو عليه، الأجدى بالعدوى، لأنّه الأغنى والأسبق في الإنسانيّات المعيوشة[٢٦]، المتقدّم في صياغة المعنى لتناغم الكلّ **Συμπάθεια τῶν ολων** في الكلّ كما في الفرد[٢٧]. الغرب الشمالي بحاجة إلى دفء شمسنا، وطيبة أرضنا وكرمها. بحاجة إلى عمق اختبارنا الرّوحيّ مكمّل الطبيعة البشريّة ودافعِها نحو التجاوز فالتحوّل. قد نحتاج إلى الغرب كي نعيش برخاء وبجهوزيّة علميّة وتقنيّة متطوّرة، ولكننا لسنا بحاجة إليه كي نكون سعداء، قبل أو بعد الممات. فلنحسن التمييز وتحديد الأهداف التي من شأنها أن تعلّق إنساننا المعذّب برقعة من نور أو بسحابة مطر.

وإنليل وجهه الملوكي، **أداد** قوّته، و**إيا** ذكاءه وحكمته إلخ... و إذا كانت **عشتار** شكل فم **نِنُورتا** فـ**أنو** و**أنتو** إنما هما شفتاها، وأمرها... فمن الجائز إذن ألا يكتفي **أنو** بالسماء كعرش للألوهته بل هو صفة ملوكيّة أيضًا، أو مصدر كلام لضمير متكلّم. وما يزيدنا إعجابًا فهو أنّ مجموع الأعداد في اسم الإله السومري، الأكادي، البابلي هو ٦٠، أي عشر مرّات ٦، رمزيّة الشموليّة الكاملة التي تعشّر الستة وتحرّر الإنسان إذ تجمع الطرفين. ويكون معنى التسمية في الجمع *Anunnaku* **الآلهة الذين هم**.

Cf., *Hymnes et prières aux dieux de Babylonie et d'Assyrie*, Traduction et notes de Marie-José SEUX, éd. du Cerf, 1976, p. 33, et p. 128 pour l'hymne à **Marduk**, et p. 132 pour l'hymne à **Ninurta**

٢٣ في تعاليم آباء الكنيسة يعكس هذا الرجاء حافزًا أساسيًّا لنموّ الإنسان كما في كتابات اقليمنضوس الإسكندري حيث يعرض في **المربّي** مختلف المراحل التي يمرّ بها الإنسان نحو التأليه. وفي عودة إلى هذه التعاليم الثابتة في الكنيسة، وتكريمًا لإقليمنضوس الإسكندري، يعقّب البابا الحالي بنديكتوس السادس عشر على هذا القول :

« … Clément reprend finalement la doctrine selon laquelle la fin ultime de l'homme est de devenir semblable à Dieu… », Bénoît XVI, *Audience générale* 18 avril 2007. Texte original italien dans *l'Osservatore Romano* du 19 avril. Paru dans *La Documentation Catholique*, n° 2385 du 05/08/2007, p. 710

24 Voir les études de Durkheim, de Weber et d'autres sur la pauvreté de l'homme occidental ou européen technicisé, « le sauvage technicisé » comme le voit C.G. Yung, dans une lettre du 25 oct. 1935, in *Le divin dans l'homme*, Lettres sur les religions choisies et présentées par Michel Cazenave, Albin Michel, 1999, p. 248

« Or l'homme qui a fait la science et qui s'y peint est un homme incomplet, fragmentaire, réduit à la seule pensée et même aux fonctions supérieures de la pensée. Au contraire, la religion est l'œuvre de l'homme intégral. » Durkheim , **“** *Le problème religieux et la dualité de la nature humaine* ”, Un document produit en version numérique par Jean-Marie Tremblay ; Site web: http://pages.infinit.net/sociojmt. Extrait du *Bulletin de la Société française de philosophie*, 1913, 13, pp. 63 à 100. Exposé suivi d'un débat. Reproduit in Émile Durkheim, Textes. 2. *Religion, morale, anomie*, pp. 23 à 59. Paris, Éditions de Minuit, 1975, 508 pp. Collection: Le sens commun.

هذا ما نقرأه أيضًا في تأمّلات بسكال المشبعة بالدعوات المتتالية إلى التواضع والإصغاء إلى الله :

« Que deviendrez-vous donc, ô homme ! qui cherchez quelle est votre véritable condition par votre raison naturelle ? … Connaissez donc, superbe, quel paradoxe vous êtes à vous-même. Humiliez-vous, raison impuissante ; taisez-vous, nature imbécile : apprenez que l'homme passe infiniment l'homme, et entendez de votre Maître votre condition véritable que vous ignorez. Ecoutez Dieu ! »

Les Pensées, Chap. X, Sect. 1, Collection les Classiques Français, Paris, 1858, p. 219

٢٥ شرح سبينوزا بإسهاب هذه **الحريّة المؤنسنة** وقد ارتكز، بتماثل، par analogie، على التعاضد والإرتباط العضويّين في الجسم البشري، وهذا ما يحمل كلّ عضو على الإعتراف بالآخر والامتنان له للوجود معًا : "وحدهم الأحرار بين البشر يقدّرون بعضهم البعض"

« *soli homines liberi erga invicem gratissimi sunt* »

Spinoza, *Ethique*, **Prop. LXXI.** In Spinoza online : http://www.yesselman.com/e4elwes.htm#LXVII

26 Georges Makdisi, *The Rise of Humanism in Classical Islam and the Christian West*, Edinburgh University Press, 1990. Pour lui, c'est dans l'Irak du VIIIe et du IX[e] siècles, et non dans les villes italiennes des XV[e] et XVI[e] siècles, que l'humanisme a pris naissance.

٢٧ نكتفي، فقط، بالإشارة إلى المصادر الرواقيّة لهذه الفكرة بخاصة وأنّ زينون، مؤسس الرواقيّة، فينيقيّ الأصل من كيتيوم – قبرص، وقد توضّحت أفكاره في مدرسته التي استمرّت أجيالاً وكانت لها تأثيرات متبادلة بينها وبين المسيحيّة الناشئة. فقطبة مارك أوريل المقدّسة التي تربط الكل، بَشّر بها بولس بعدما وجدها في شخص المسيح، الذي يوحّد الكلّ في سرّ تجسّده. راجع مارك أوريل ٧، ٩؛ يوحنا ١، ٣ و١ كورنتوس ١٥، ٢٨ أو غلاطية ٣، ٢٨.